

الإشارات الأدبية للشعر والشعراء في إخوانيات أبي العلاء المعري

عبد الله محمد أحمد^(١)

المستخلص

عاش أبو العلاء المعري عزلة امتدت لست سنوات في معرّة النعمان، ولم تكن هذه العزلة لتأى به عن مكاتبة كثير من رصفائه في زمانه. وقد لقيت هذه الرسائل اهتماماً كبيراً من النقاد بوصفها عملاً أدبياً متميزاً تمت صياغته في أسلوب أدبي بليغ ولغة رصينة، كما أنه وشّحه بالإشارات الأدبية، وقد جعل كاتب البحث همه في إشارات المعري إلى الشعر والشعراء.

Abstract

Abul-Ala Al-Ma'arri lived a six- period of self imposed solitude in Al - Ma'arra .Despite his solitude he had correspondence with numerous other luminaries of his age. The collection now known as Rasa'il Al-Ma'arri is not just a casual compilation of personal correspondence; they are of great literay value, they were written in a sublime literary language. Al-Ma'arri was famous for using a compendium of literary allusions in his works and this article aims at studying examples of these allusions to old poets and extracts of their poems.

(١) جامعة الخرطوم - كلية الآداب.

المقدمة:

وجدت مصنّفات المعري اهتماماً كبيراً من الدارسين وإن كان هذا الاهتمام قد اقتصر في مجمله على ديواني سقط الزند واللزوميات ورسالة الغفران، ولقيت رسالة الملائكة والفصول والغايات وزجر النابج وغيرها اهتماماً أقل، أما الرسائل القصار فلم تجد الاهتمام الذي يليق بها لما حوته من غريب اللغة وحوشيها ومن المبهمات، على الرغم أنّها وجدت طريقها للنشر منذ ١٨٩٤م في لبنان، وهذه الرسائل تحتاج إلى محقق جاد ليقوم بشرح الغريب فيها وشرح مبهماتها وما يزال تحقيقها يُعدّ ناقصاً.

وقد تخيّرتُ في هذا البحث نماذج قليلة ومقتطفات من رسائله اجتهدتُ في شرح الغريب فيها وبيان الإشارات الأدبية التي لا يتيسّر الوصول إليها إلا من خلال الشرح اللغوي، مُقتصرأً على إشاراته لأعلام الشعراء وأبيات من أشعارهم وما يتعلّق بهذا من أخبارهم، وقد وقّعتُ على أشياء يسيرة أحسبُ أنه قد أصابها ضربٌ من التصحيف والتحريف، وهذا لوعورة اللغة التي كُتبت بها.

الرسائل الإخوانية:

هي جمع إخوانية نسبة إلى الإخوان، وهو فنٌ قديم في اللغة العربية وُجد في النثر كما وُجد في الشعر، غير أنه في النثر يُسمّى العتاب أو الإخوانيات، وقد ازدهرت الرسائل الإخوانية في العصر العباسي الأول، واتخذها الأدباء وسيلة للتعبير عما يختلج في نفوسهم من الخوف والرجاء، والرغبة والرغبة، وتراسلوا في التّهنّائي والاستعطاف والتعزية، وقد نافس النثر الشعر في هذا المضمار، وقد أدلى الشعراء من أمثال أبي العلاء بدلوهم في إنشاء الرسائل الإخوانية لما وجدوا لها من تأثير في النفوس، وقد صار في العصر العباسي فناً قوياً حتى يخيّل للقاريء أنّه فنٌ جديد لكثرة ما فيه من الصور والتعابير.

يقول زكي مبارك "هو فنٌ قديم في اللغة العربية، وجد في النثر كما وجد في الشعر، غير أنه في النثر يسمى العتاب. ومن المؤلّفين من يطلق لفظ الإخوانيات والعتاب بدون تمييز على ما يقال شعراً أو نثراً في مناجاة الأصدقاء وقدم هذا الفن في اللغة

الإشارات الأدبية للشعر والشعراء في إخوانيات أبي العلاء المعري

العربية لا يمنع أنه صار في القرن الرابع فناً قوياً يخيل إلى القارئ أنه فنٌ جديد، لكثرة ما وُجد فيه من الصور والتعابير. وهو في جوهره قريب من الغزل لا يفرق بينهما إلا اختلاف ما يردان عنه من أحوال النفس^(١).

ويقول القلقشندي: "هي جمع إخوانية، نسبة إلى الإخوان، تجمع على أخ والمراد المكاتبات الدائرة بين الأصدقاء"^(٢).

وقد زانت هذه الرسائل في العصر العباسي تلك الطلاوة اللفظية التي حاكى بها العباسيون ما كان في معيشتهم من ترف، وفي طبعهم من رقة وظرف، فسجعوا كسجع الحمام سجعاً قصير الفقرات، حسن الموقع من النفوس، وضمّنوا كلامهم الإشارات التاريخية، والأمثال السائرة، والأخبار النادرة، والأشعار المشهورة.

كانت الحضارة قد بلغت منتهاها، في الفترة من ٢٣٤ - ٤٤٧ هـ - وهي مدة حكم البويهيين - فهي في المعيشة ترف ونعيم، وفي العقول ذخيرة ثرة بما أثمرته العلوم المترجمة والعلوم الموضوعية، وما نمته المدنية من خيال وذوق، ولكن قد شاب هذه الحصافة الفكرية والثروة الخيالية نقص في ملكة اللغة التي بعد أهلها بالبداوة، وطال أمدهم في المعاشرة للوجهة والنشوء فيها، وحسن تسلسلها مع سموها وارتقاء الخيال فيها. كذلك زانت عباراتهم تلك الطلاوة اللفظية التي حاكوا بها ما كان في معيشتهم من أناقة، وما تراءى في نفوسهم من رقة وظرف، فسجعوا كسجع الحمام سجعاً قصير الفقرات، حسن الموقع، مطابق وأظهروا موهبة الله فيهم من العلم الواسع المدى، فضمّنوا كلامهم الإشارات التاريخية، والمصطلحات العلمية، والأمثال النادرة والحكيم الحكيمة، والشعور المشهور، وتوسّعوا في أغراض الكتابة، فلم تعد مقصورة على رسائل السلطان والشوق والعتاب والاستعطاف، بل تعدوا ذلك إلى أغراض الشعر، فاستعاروها وكتبوا فيها^(٣).

(١) النثر الفني في القرن الرابع: زكي مبارك: مطبعة السعادة، مصر، د. ت: ١/ ١٦٣.

(٢) صبح الأعشى: العباس أحمد القلقشندي، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ٣/ ٥٥.

(٣) الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي، مصطفى محمود، ط ٢، ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧: ٩٠.

إنَّ المتأمل في كتب أبي العلاء المعري ودواوين شعره يجدها تزخر بالكثير من أسماء الشعراء والأدباء العرب واقتباس معانيهم وعباراتهم، والاستشهاد بنماذج من أشعارهم أو الإشارة إليها تصريحاً أو تلميحاً، سواء أكان هذا في أشعاره ودواوينه أو في منشوره في الفصول والغايات ورسالة الغفران أو رسائله التي كتبها إلى معاصريه، وكلها مليئة بالإشارات إلى التراث العربي وما جاء فيها من أخبار الشعراء وأشعارهم من الجاهلية والإسلام إلى العصرين الأموي والعباسي، وتدلُّ هذه الإشارات على معرفة باللغة والأدب والأخبار قلَّ أن يُوجد لها مثيل، وكان يهدف في بعضها إلى شرح أشعار قديمة، وقصد في بعضها إلى نقد آراء الشعراء. وللمعري بصراً بالشعر ونقده فقد اختصر ديوان أبي تمام وشرحه وسماه "ذكرى حبيب" وديوان البحتري وسماه "عبث الوليد" وديوان المتنبي وسماه "معجز أحمد" وتكلم على غريب أشعارهم ومعانيها وما أخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم، وتولى الانتصار لهم والنقد في بعض المواضع عليهم، والتوجيه في أماكن لخطئهم.

كذلك تزخر هذه الرسائل باصطلاحات النحو والعروض والصرف والقراءات، والإشارات المعجمية التي يبيِّن رأيه فيها وفيها دلالة على معرفته الموسوعية باللغة وقد عمَد المعري في شعره ونثره إلى التعمية والإلغاز، وهذا شأنه في كلِّ مصنفاته يقول في كتابه الصاهل والشاحج على لسان البغل يخاطب الفرس أبا أيوب "إني كرهتُ أن أتصورَ بصورِ أهلِ النظمِ المتكسِّين الذين لم يتركْ سؤالُ الناسِ قطرةً في وجوههم من الحياء، ولا طولُ الطمعِ أنفةً في نفوسهم من قبيح الأفعال، فعدلتُ عن ذلك إلى تحميلك أخباراً مُستطرقةً لها في السمع ظاهرٌ، ولها في المعنى باطنٌ نحو ما نحاه ابن دريد في كتاب "الملاحن" وابن فارس الرازي في فتيا فقيه العرب"^(١).

وقد أفاد في ألفازه من الرمز بالحيوان في التعبير عن آرائه التي لم يشأ أن يصرِّح بها. والمطلَّع على أعمال المعري في شعره ونثره يجد ولعاً شديداً بذكر الحيوان وحشيَّه

(١) الصاهل والشاحج، أبو العلاء المعري: ٢١٩ - ٢٢٠.

الإشارات الأدبية للشعر والشعراء في إخوانيات أبي العلاء المعري

وَأليْفِه، وله تفنُّن في وصف الحيوان لم يُسبق إليه، وقد أكثر من ذكر الحيوان ووصفه في هذه الرسائل.

أمَّا أغراض هذه الرسائل فقد تنوّعت فمن أغراضها المدح والتهنئة والتعزية والاستعطاف، وقد اشتملت في مضمونها أيضاً على الوصف والفزل وغيره من الأغراض، بل تكاد تُشارك الشعر في جميع أغراضه.

وتدلُّ هذه الرسائل على أن أبا العلاء كان على صلة وثيقة برجالات عصره، و خاطب المعري في هذه الرسائل طبقة من أصحاب العلم والفكر في عصره في الشام والعراق، وتُعَدُّ هذه الرسائل مادة غزيرة لدراسة صلاته الشخصية مع معاصريه. وممن راسلهم أبو العلاء أبو القاسم الوزير المغربي، وخاله أبو الطاهر المشرف بن سبيكة، وخاله أبو القاسم بن سبيكة، وأبو القاسم الأستراباذي، وأبو بكر محمد بن أحمد الصابوني، والشيخ أبو أحمد عبد السلام بن الحسن، والقاضي أبو الطيب طاهر بن عبد الله الشافعي، وأبو منصور خازن دار العلم ببغداد وغيرهم من رجالات عصره ممن ورد ذكرهم في الرسائل.

أولى هذه الرسائل التي نستعرضها بعث بها المعري إلى رجل كانت بينه وبينه معرفة ومعاملة، منها: "شوقي إليك شوق الأسدِيَّ إلى وشكِّه والنُّميريُّ تلقاءَ همِّله"^(١).

قوله "شوق الأسدِيَّ، إشارة إلى قول أبي القمقام الاسدي :

اقرأ على الوشَلِ السَّلامَ وَقُلْ لَهُ	كَلَّ المشارِبِ مُذْ هَجَرْتُ دَمِيمُ
سَقِيَا لِظِلِّكَ بِالْعَشِيِّ وَبِالضُّحَى	وَلِيَبْرِدْ مَائِكَ وَالْمِيَاهُ حَمِيمُ" ^(٢)

الوشل: الماء القليل يترقرق على وجه الأرض. وقال الخليل: الوشل: الماء القليل، يتحلَّب من صخرة أو جبل، يقطر منه قليلاً قليلاً. والوشل: القاطر، يقال: جبل واشل: يقطر منه الماء^(٣). ويُهْدِي الشاعر التحية لهذا الماء، ويُعلِّمه أن المشارب كلها مذمومة

(١) رسائل المعري: مرجليوث، مطبعة المثنى، بغداد: ٢٧.

(٢) معجم الأدباء: ياقوت بن عبد الله الحموي: دار الفكر، بيروت: ١٩٨٠: ٣/ ١٤٥.

(٣) لسان العرب مادة: وشل.

عنده منذ تحوّل عنه وترك وروده. ثمّ دعا لظله بالسّقيّا فقال: سَقِيَا لظِّلِكَ بالعشيّ وبالضحى، والظّل يكون للشجرة وغيرها بالغداة، والفيء بالعشيّ، فكان في الواجب أن يقول: سَقِيَا لظِّلِكَ بالغداة، ولفيئك بالعشي^(١). وشوق الشاعر إلى الأرض لا يخلو أن يستصحب معه الشوق إلى المحبوبة، وبقدر ارتباط الشاعر بالمرأة يكون ارتباطه بالأرض، وقد اقترن ذكر المكان في أشعار العرب غالباً بذكر المرأة. وأما قوله "النميري تلقاء همله فيُشير إلى الراعي النميري، وقد سمّي بالراعي لكثرة وصفه الإبل، يُشير إلى قوله:

وَقِيَمَ أَمْدَرُ الْجَنْبَيْنِ مُنْخَرِقٍ عَنْهُ الْعَبَاءُ قَوَامٌ عَلَى الْهَمَلِ

"قوله أمدر الجنبين أي عظيمهما. ويقال: الأمدَرُ الذي قد تترّب جنباه من المَدَر، يذهب به إلى التراب، أي أصاب جسده التراب. والهمل الإبل التي لا راعي لها"^(٢)، وجعله أبو العلاء شوقاً لشدة تعلق الأعراب ببيئتهم ولو كانت عيناً وشيلة أو إبلأ هملاً، فالماء والإبل قوام حياة الأعراب، وفي هذا دلالة على تعلق المعريّ بالبادية دون الحاضرة كما نجد في شعره ونثره. وفعل في هذا فعل شيخه أبي الطيب، وما سلك أبو الطيب وادياً إلا سلكه المعري، وعندي أن درعيات أبي العلاء هي سيفيات أبي الطيب، فالمتنبى من الشعراء الذين تأثر بهم المعري، وأعجب بهم، وإعجابه بالمتنبى لا يحتاج إلى كثير من الاستدلال فقصته مع الشريف الرضي وتعبه للمتنبي في مجلسه مشهورة، وقد ذكر ابن خلكان أن المعري لما فرغ من تصنيف كتاب اللامع العزيزي في شرح المتنبي وقرئ عليه، أخذ الجماعة في وصفه فقال أبو العلاء: كأنما نظر المتنبي إليّ بلحظ الغيب حيث يقول:

أنا الذي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أدبي وَأَسْمَعَتْ كُلِّمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمٌ^(٣)

(١) شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، أحمد بن محمد بن الحسن، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧: ١١٢٣.

(٢) لسان العرب: مادة مدر — همل.

(٣) إنباه النحاة: الققطي: ٤٩.

الإشارات الأدبية للشعر والشعراء في إخوانيات أبي العلاء المعري

ولعلّه أراد بالإبل الهَمَل ما آل إليه حال المسلمين من تشتّت وتفرّق، وفي الحنين إلى البادية أسفٌ على ما ضاع من مجد العرب وخروج الأمر من أيديهم وغلبة الأعاجم على الملك والرئاسة، يقول في لزومياته:

غَنِينَا مِنْ عَفَافِ النَّفْسِ أَفْقَرُنَا وَقِيلْنَا عَلَجٌ وَحَشٍ يَأْلَفُ الْأُنثَا^(١)

ومما مدح به المعري الشعراء في إخوانياته رسائلته التي بعث بها إلى النكتي البصري وهو أبو الحسين أحمد بن عثمان وكان من أصدقاء المعري، بعث للمعري بكتاب وقصيدة دالية، يقول "وأما ما اختاره من رويّ، ليس بغويّ، فإنه اعتام الدال حرفاً تخيّر طرفه بكلمته المنفردة، والنابعة لوصف المتجرّدة"^(٢) وقوله اعتام أي تخيّر، وطرفة هو "طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد وينتهي نسبه إلى بكر بن وائل، ولقب بطرفة واسمه عمرو، وقد لُقّب ببيت قاله:

لا تعجلاً بالبُكاءِ اليومَ مُطَرِّفاً ولا أُميرَكُما للدارِ إذ وقفاً

وكلمته المنفردة التي أشار إليها المعري هي:

لِحَوْلَةِ أَطْلَالٍ بِبُرْقَةٍ تَهْمَرُ تَلُوْحُ كِبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ^(٣)

وقد وصف معلقته بالمنفردة لشهرتها، وهو أشعر الشعراء بعد امرئ القيس ومرتبته ثاني مرتبة، ولهذا تُنَيّ بمعلقته، وقال الشعر صغيراً. وقال ابن قتيبة: هو أجود الشعراء قصيدة، له بعد المعلقة شعر حسن وليس عند الرواة من شعره وشعر عبيد إلا القليل^(٤) وعده ابن سلام من الطبقة الرابعة من الجاهليين^(٥). وفي قوله "ليس بغوي" إشارة خفية إلى قوله تعالى {وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} (الشعراء: ٢٢٤) فهل أراد أن ينفي عنه الغي لمكانة شعره.

(١) لزوم مالا يلزم، أبو العلاء المعري، دار صادر، بيروت ١٩٦١: ١٢٣.

(٢) رسائل المعري: مرجليوث: ٧٢.

(٣) ديوان طرفة بن العبد: تحقيق كرم البستاني، المكتبة الثقافية لبنان، بيروت دت: ١٣.

(٤) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، لندن، ١٩٠٢: ١٢٣.

(٥) طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام الجمحي: تحقيق محمود محمد شاكر: دار المدني بجدة: د. ت: ١١٥.

أما النابغة فهو زياد بن عمرو بن معاوية ويُكنى "أبا أُمّامة، وأبا ثُمّامة" بابتين له، لُقّب به لنبوغه في الشعر وإكثاره منه بعد ما احتكّك "أي استحكّم واكتمل عقله"، وهو أحد شعراء الطبقة الأولى، المقدمين على سائر الشعراء عدّه ابن سلام بعد امرئ القيس وقبل زهير والأعشى، وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يعدّه أشعر العرب ووصفه ابن سلام بقوله "إنه كان أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتاً، كأنّ شعره كلام ليس فيه تكلف"^(١)

وقوله "وصف المتجرّدة" يعني داليته التي مطلعها:

أمن آل مئة رائج أو مُغتدي عجلان ذا زار وغير مُرود

وفيه وصف المتجرّدة زوج النعمان بن المنذر في أبياته:

سَقَطَ النّصيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ فَتَنَّاوَلْتَهُ وَاتَّقَسَا بِالْيَدِ
بِمُخَضَّبٍ رَخَصٍ كَأَنَّ بَنَانَهُ عَنَّمْ يَكَادُ مِنَ اللِّطَافَةِ يُعْقَدُ
تَجَلَّوْا بِقَادِمَتِي حَمَامَةً أَيْكَةً بَرْدًا أَسِيفٌ لِّثَنَاتِهِ بِالْإِثْمِ
كَالْأَقْحَوَانِ غَدَاةً غِيبَ سَمَائِهِ جَفَّتْ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ نَدِي^(٢)

وأحسب أنّ في حديثه تقرّيباً لدالية نظمها النُكُتي البصري . وثناء أبي العلاء على روي الدال ليس بمستغرب فالدال من القوافي الدُّلُّ المستحسنة، ولأبي العلاء أكثر من سبعين قصيدة على هذا الروي أشهرها:

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي نَوْحُ بَالِي وَلَا تَرْتَمُ شَارِ^(٣)

وكذلك داليته:

أرى العنقاء تكبرُ أن تُصادا فعانِدْ مَنْ تُطِيقُ لَهُ عِنَادا

وفيها:

وكم من طالِبِ أَمَدِي سِيْلَقَى دُونِ مَحَاْنِي السَّبْعِ الشَّدَادا

(١) طبقات فحول الشعراء: ١١٥.

(٢) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق كرم البستاني، د. ت: ٣٨.

(٣) سقط الزند، أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري، المكتبة الأبية، بيروت، ١٩٨٤: ١٩.

الإشارات الأدبية للشعر والشعراء في إخوانيات أبي العلاء المعري

وكم عَيْنٌ تُؤْمَلُ أَنْ تُرَانِي وَتَفْقِدُ عِنْدَ رُؤْيَيْ السَّوَادِ^(١)

وهما من عيون الشعر العربي.

يقول المعري في هذه الرسالة أيضاً "لقد هاجت لي ألفاظه ما هاجت الخطباء لحُميد، والصهباء لأبي زبيد"^(٢)

وحُميد هو "حميد بن ثور بن عبد الله بن عامر الهلالي، وهو شاعر مخضرم عاش في الجاهلية وقضى الشطر الأكبر من حياته في الإسلام، لذا عدّه ابن سلام وغيره من شعراء الطبقة الرابعة من الإسلاميين، وكثُرَ في شعره وصفُ الحمامة وشجوها، وحميد هذا أدرك زمن عمر بن الخطاب ؓ وتوفيَ على الأرجح في أيام عثمان بن عفان ؓ، ويُعدُّ حميدُ من فحول الشعراء المجيدين"^(٣).

والخطباء هي الحمامة، ومن أشهر شعره الذي يصفُ فيه الحمامة:

وما هاجَ هذا الشَّوقُ إلا حَمَامَةً دَعَتْ ساقَ حُرٍّ ثَرَحَةً وترُثُماً

مُطَوَّقَةً خُطْبَاءُ تُصَدِّحُ كُلَّهَا دَنَا الصَّيْفُ وَانْجَالَ الرَّبِيعُ فَأَنْجَمَا^(٤)

والمعري شديد الولع بذكر الحمام في شعره ونثره، ومن هذا قوله وهو من جيد

شعره:

وَشَكَلَيْنِ مَا بَيْنَ الْأَثَايَةِ وَاحِدٌ وَأَخَرُ مُوفٍ مِنْ أَرَاكِ عَلَى قَرْعٍ
أَتَى وَهُوَ طَيَّارُ الْجَنَاحِ وَإِنْ مَشَى أَشَاحَ بِمَا أَعْيَا سَطِيحاً مِنَ السَّجْعِ
يُجِيبُ سَمَاوِيَّاتٍ لَوْ أَنَّهَا شَكِرْنَ بِشَوْقٍ أَوْ سَكِرْنَ مِنَ الْبُتْعِ
تَرَى كُلَّ خُطْبَاءٍ الْقَمِيصِ كَأَنَّهَا خَطِيبٌ تَتَمَّى فِي الْغَضِيضِ مِنَ الْيَنْعِ
إِذَا وَطِئَتْ عَوْداً بِرِجْلِ حَسْبَتِهَا ثَقِيلَةً حَجَلٍ تَلْمَسُ الْعَوْدَ ذَا الشُّرْعِ^(٥)

(١) نفس المصدر: ٢٥.

(٢) رسائل المعري: ٦٥.

(٣) طبقات فحول الشعراء: ٥٧.

(٤) ديوان حميد بن ثور الهلالي، تحقيق عبد العزيز الميمني، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥١: ٢٥.

(٥) سقط الزند: ٦٣.

يصف حمامةً تُغني على فرعٍ في رسم دارٍ حيث لصق الرماد بالأرض وقد أشبه لوئها لون الرماد، ثم وصف الحمامة على عجمتها بالفصاحة حتى لقد فاقت سطوحاً الكاهن في سجعها، وهي تجاوبُ حمائم يتغنين إذ هاجهنَّ الشوقُ حتى أغصهنَّ، أو لعلهنَّ شرينَ خمراً فغنينَ انتشاءً، وما للحمام والخمر، ثم شبه الحمامة وهي تُغني على الفصن بالطبيب على المنبر، وشبه غناءها بغناء الجارية وضربها على العود، وفي قوله "شكرن بشوق" إشارة خفية لقول أبي الطيب:

وَمَا شَرَقِي بِالمَاءِ إِلَّا تَذَكُّراً لِمَاءِ بِهِ أَهْلُ الحَبِيبِ نُزُولٌ^(١)

ومن ذكره لشوق الحمام ما كتبه إلى أبي نصر صدقة يوسف الفلاحى لما استدناه إلى حضرة الأمير عزيز الدولة: "ما حمامة ذات طوق يضربُ بها المثلُ في الشوق، كانت في وكرٍ مصُون بينَ الشجرِ والفصون، تألفُ من بني جنسها ريداً، فيتراسلان تغريداً، مسكنها نَعْمَانُ الأراك، تأمنُ به غوائلَ الأشراك، وتَمُرُّ في بُكرتها بالببيت الحرام، لا تَفَرِّقُ لِمكان صائد ولا رام، فغرّها القدر، إذ لم ينفع الحذر، فخرجت من الأرض المحرمة، فأصبحت وهي جدُّ مُغرمة، صاهاها وليدٌ في الحلّ، ما حفظ لها من إلّ، فأودعها سجنًا للطير، وحفظها من كلِّ مَير، فإذا رأت من خصاص القفص بواكر الحمام، ظلت تمارس جُرْع الحمام، وتَسألُ بطرفها أخاها، ما فعل بعدها فرخاها، فيقول أصبحا ضائعين، قد سترهما الورق من كلِّ عين:

فُريخان يَنْضاعان في الليلِ كُلِّما أحسَّ دويُّ الريح أو صوت ناعبٍ

بأشوقٍ للمعيشة النضرة، مَنِي إلى تلك الحضرة"^(٢) فهو يصف شوق الحمامة ثم يبيِّن لمن راسله أنَّ شوقه إليه يفوق شوق تلك الحمامة.

ومن طريف الإشارات في الفصول والغايات قوله يخاطب الحمامة "يا حمامة الأيك، أين السُّلكة والسُّليك، بل أسألك عن سَمِييك، بنتِ القارضة وأبي الواقف على أبي

(١) ديوان المتنبى، أبو الطيب أحمد بن الحسين، البابي الحلبي، ١٩٣٦: ٩٧/٣.

(٢) رسائل المعري: ٢١.

الإشارات الأدبية للشعر والشعراء في إخوانيات أبي العلاء المعري

مليك، فأخبرني إن كنت من المخبرات^(١) والسُّليكَ هو السُّليكَ بن السُّلُكَة من صُعاليك العرب، والسُّلُكَة أمّه، وأما القارظَة فهي القارظَة بنت الفاخِنة، والفاخِنة هي الحمامة فأُم القارظَة سميّة الحمامة، وأما الواقف على أبي مليك فهو ابن الحمامة الشاعر، وأبوه سمي الحمامة أيضاً. وأبو مليك هو الحطيئة جرول بن أوس الطائي، وله مع الحطيئة خبر ورد في أخبار الحطيئة في الأغاني.

وأما أبوزبيد فهو حرملَة بن المنذر، وقيل المنذر بن حرملَة، وكان أبوزبيد نصرانياً، وهو ممن أدرك الجاهلية والإسلام فعُدَّ من المخضرمين، وألحقه ابن سلام بالطبقة الخامسة من الإسلاميين^(٢)

والصُّهْبَاءُ: الخَمَرُ، يقول ابن منظور "سميت بذلك للونها. قيل: هي التي عُصِرَتْ من عنب أبيض؛ وقيل: هي التي تكون منه ومن غيره، وذلك إذا ضُرِبَتْ إلى البَيَاض؛ قال أبو حنيفة: الصُّهْبَاءُ اسم لها كالْعَلَمِ"^(٣).

قال ابن منظور "أخبرني الحسين بن يحيى عن حماد عن أبيه قال: كان لأبي زبيد نديم يشرب معه بالكوفة، فغاب أبوزبيد غيبة، ثم رجع، فأخبر بوفاته، فعدّل إلى قبره قبل دخوله منزله فوقف عليه ثم قال:

يا هاجري إذ جئتُ زائرُهُ ما كان من عادتك الهجرُ
يا صاحبَ القبرِ السَّلامِ على من حال دُونِ لقائه القبرُ

ثم انصرف^(٤). وقد ورد ذكر أبي زبيد في رسالة الغفران يقول المعري: "ولو رأى تلك الأباريق أبو زبيد لعلم أنّه كالعبد الماهن أو العبيد، وأنّه ما تشبّث بخير، ورضي بقليل المير وهزىء بقوله:

وَأَبَارِيقُ شَبْهَ أَعْنَاقِ طَيْرِ الْمَا ء جِيبَ فَوْقَهُنَّ خَنِيفُ

(١) الفصول والغايات: أبو العلاء المعري، مصر، ١٣٥٦هـ: ٤٦.

(٢) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، دار الثقافة، بيروت: ١١٨/١٢

(٣) لسان العرب: صهب.

(٤) الأغاني: ١٢/١٢٧.

هيهات هذه أباريق، تحملها أباريق، كأنها في الحسن الأباريق^(١)

وأبو العلاء على تقواه وتألهه تمنى في شعره لو حلت له الخمر، يقول:

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
فأذهل أني بالعراق على شفا رذي الأماني لا أنيس ولا مال
مقل من الأهلين يسر وأسرة كفى حزناً بين مشت وإقبال^(٢)

وأشار في رسالته التي كتبها إلى أبي الحسن علي بن عبد المنعم بن سنان إلى الحادرة وذي الرمة يقول المعري: "سلامي، عضد الله الجماعة ببقائه، سلام ذي الرمة على مي والحادرة على سمي^(٣)" وذو الرمة وهو لقب غيلان بن عقبة، من عشاق العرب الذين تضرب بهم الأمثال، ومي هي بنت طلبة ابن قيس بن عاصم المنقري، وما أرى أبا العلاء قد أراد سوى قوله:

أمنزلتي مي سلام عليكما على النأي والنائي يود وينصح
ولا زال من نوء السيمالك عليكما ونوء الثريا وأبل متبطح^(٤)

وقوله:

أمنزلتي مي سلام عليكما هل الأزمم اللائي مضمين رواجع
وهل يرجع التسليم أو يكشف العمى ثلاث الأثافي والرُسوم البلاقع^(٥)

والحادرة هو قطبة بن محصن بن جرول بن حبيب وقيل اسمه قطبة بن قيس وهو شاعر جاهلي مقل والحادرة لقبه وسمي الحادرة ببيت قاله زبان بن سيار مجيباً له عن شعر قاله فيه.

(١) رسالة الغفران، أبو العلاء المعري، تحقيق عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي، دار المعارف، ١٩٩٧: ١٤٣.

(٢) سقط الزند: ٨٧.

(٣) رسائل المعري: ٢٦.

(٤) شرح ديوان ذي الرمة، غيلان بن عقبة، الخطيب التتيزي، دار الكتاب العربي، ١٩٩٦: ٤١٣.

(٥) نفس المصدر: ٤٣٩.

يقول زيان:

كَأَنَّكَ حَادِرَةُ الْمُنْكَبِيِّ مِنْ رَصْعَاءُ تَنْقُضُ فِي حَائِرٍ^(١)

أي إنك مشتهر بنظر الناس إليك، فحدره زيان في هذا البيت فسمي الحادرة به،
وقوله: حادرة المنكبين، أي ضخهما، وكل ضخم فهو حادر، أما سميّة فهي محبوبته
ويقول فيها:

بَكَرْتُ سُمِيَّةً غَدَوَةٌ فَتَمَتَّعَ وَغَدْتُ غَدَوٌ مَفَارِقٍ لَمْ يَزْجِبِ
فَكَأَنَّ فَاهَا بَعْدَ أَوَّلِ رَقْدَةٍ تُغْبِ بِرَابِيَةٍ لَذِيذِ الْمَكْرَعِ^(٢)

فهل كان أبو العلاء يتلذذ بذكر مية وسميّة، وقد أبغض أبو العلاء المرأة جهراً
وأحبّها سرّاً فله غزل بديع وبعضه لا يخلو من اشتهاه لمن تأملّه، وما أحسن الجناس بين
لفظتي مي وسُمي.

يقول المعري في رسالته التي أرسلها إلى خاله أبي طاهر بن سبيكة، عندما أصابته
طعنة في بنانه وأضرّت به بعض الإضرار: "لم نزل قبل أن يصحّ لنا الخبر، ذوي ليل
أبدي، كأنه ليل الكِندي"^(٣). والكِندي هو "امرؤ القيس بن حُجر بن عمرو آكل
المرار وأمّه فاطمة ابنة ربيعة بن الحارث التغلبي، قال أبو عبيده معمر بن مثنى: أن امرأ
القيس أشعر شعراء الجاهلية، لأنه أول من استوقف الرفيق وبكى الدمع، وأول من
شبه الخيل بالعصا واللقوة والظباء والسباع والطير، وتبعه الشعراء على تشبيهه لها بهذه
الأصناف"^(٤).

وليل الكِندي الذي أشار إليه المعري هو:

وَلَيْلِ كَمَوْجِ الْبَحْرِ مُرَخِّ سُدُولُهُ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي

(١) الفضليات، المفضل بن محمد الضبي، شرح أبي محمد القاسم بن بشار الأتباري، عني بطبعه كارلوس يعقوب
لايل: ٤٩.

(٢) نفس المصدر: ٥١.

(٣) رسائل المعري: ٤١.

(٤) جمهرة أشعار العرب، أبو زيد محمد بن الخطاب القرشي، تحقيق علي محمد الجاوي د.ت: ٦٥.

فقلتُ له لما تمطى بصلْبِهِ وأردفَ أعْجَازاً وناءً بكلِّكِلِ
 ألا أيَّها الليلُ الطَّويلُ ألا انجلي بصبِحٍ وما الإصباحُ منك بأمثِلِ
 فيالك من ليل كَأَنَّ نُجُومَهُ بكلِّ مُغَارِ القتلِ شُدَّتْ يَبْذِلِ
 كَأَنَّ الثُّريا علقت في مَصامِها بأمْراسٍ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جندلٍ^(١)

وقد أسهب النقاد في تقييد هذه الأبيات يقول عبد العظيم بن أبي الإصبع: "فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناءً بكل كل فإن هذا الشاعر استعار لظلمة الليل السدول المرخاة، لما بين المستعار والمستعار له من اجتماعهما في منع الأبصار من الإبصار، وفائدة هذه الاستعارة نقل الأخصى إلى الأظهر، لأن السدول يدرك بحاستي البصر واللمس، والظلمة تدرك بأحديهما دون الأخرى، ثم تم بكونه جعل السدول مرخاة لأن ذكرها بدون هذا القيد لا يوفي بالمعنى الذي قصده من منع رؤية ما وراءها، لاحتمال أن تكون مرفوعة، وكذلك قصد في البيت الثاني بقوله تمطي بصلبه فإنه أراد وصف الليل بالطول فاستعار له صلباً يتمطي به، إذ كان كل ذي صلب يزيد في طوله عند تمطي شيء، وبالغ في وصف طوله بأن جعل له أعجازاً يردف بعضها بعضاً، فهو كلما نفذ عجز ردفه عجز، فلا تفني أعجازه، ولا تنتهي إلى طرف، كما قيل في قوله تعالى "لابئين فيها أحقاباً" قال قتادة: لا انقطاع لها، كلما مضى حقب جاء حقب بعده. وقال الحسن البصري: أما الأحقاب فليس لها عدد إلا الخلود، ثم أراد أن يصف الليل بعد نهاية الطول بالتقل على قلب ساهره، والضغط لمكابده، فاستعار له كلكلاً ينوء به، ولأجل هذه المعاني كانت الاستعارة أبلغ من الحقيقة والعدول إليها أولى لما تُعطي من المعاني التي لا تحصل من لفظ الحقيقة."^(٢)

يقول المعري في رسالته إلى أبي بكر الصابوني: "وقد عرضت إلى الشيخ حاجة جعلتها فيها عماداً المضوفاً، لا العماد عند أهل الكوفة، وإنما حملني أن أخصه بها

(١) شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٨٥: ٥١-٥٣

(٢) تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر، عبد العظيم بن ذي الإصبع، تحقيق حفي محمد شرف، القاهرة

الإشارات الأدبية للشعر والشعراء في إخوانيات أبي العلاء المعري

دونَ سائرٍ من عرفتُ أن اسمَه أدام الله عزَّه كاسمَ نبيٍّ بالشفاعةِ حقيق، والكنية كنية الصديق، والصابوني هجاءُه صاب، ومدحُه ونَّى، صاب من صوب المطر، والوئى اللؤلؤ في شعر ابن حَجَر، والغيثُ يُحمدُ وإنَّما أنبتَ زهراً، فكيف إذا أمطرَ جوهراً^(١). والمضوِّفة هو الأمر الذي يُشفق منه، والعماد: ما أُقيم به، وأما قوله "العماد عند أهل الكوفة"، قال أبو العباس ثعلبٌ "والحال في "لا" يدخل عليه العماد. وذهب أهل الكوفة الكسائي والفراء إلى أن العماد لا يدخل مع هذا لأنَّه تقريب، وهم يسمُّون هذا زيد القائم تقريباً، أي قرب الفعل به"^(٢). والصاب عُصاة شجرٍ مرّ.

وابن حجر هو "أوس بن حجر بن مالك التميمي، أبو شريح، شاعر تميم في الجاهلية، من كبار شعرائها، في نسبه اختلاف بعد أبيه حَجَر، وهو زوج أمّ زهير بن أبي سلمى، كان كثير الأسفار، عُمُر طويلاً، ولم يدرك الإسلام، في شعره حكمة ورقة، وكانت تميم تُقدِّمه على سائر شعراء العرب، وكان غزلاً مُغرماً بالنساء. قال الأصمعي "أوس أشعر من زهير، إلا أن النابغة طأطأ منه، وهو صاحب الأبيات المشهورة التي أولها:

أيتها النفسُ أجملِي جزعاً^(٣)

وعَدَّه ابن سلام من شعراء الطبقة الثانية، وقال "كان أوسٌ فحلّ مضر، حتى نشأ النابغة وزهيراً خملاه"^(٤). وأشار إلى قوله:

كَأَنَّ وَئِيْ خَانَتْ بِهِ مِنْ نِّظَامِهَا مَعَاقِدُ فَارْفَضَتْ بِهِنَّ الطَّوَائِفُ^(٥)

والوئى جمع ونية وهي الدُّرَّة، شبَّه ابن حَجَر النوق في سرعتها بالدرر التي خانها النظام فانفردت عقدها، وهو من غرائب التشبيهات، وأحسبها نوقاً بيض والإبل الببيض

(١) رسائل المعري: ٤٦.

(٢) مجالس ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى، تحقيق عبد السلام هارون، مصر، ١٩٤٨: ١٥٩.

(٣) ديوان أوس بن حجر، تحقيق محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت ١٩٦٠: ٥٣.

(٤) طبقات فحول الشعراء: ٨١.

(٥) ديوان أوس بن حجر: ٦٦.

تُسَمَّى عند العرب الهجان، وهي أكرم الإبل، وشبهها بالدرّة لبياضها وصفاء لونها وكرمها، وقول المعري "اسم نبي" لأن اسم الصابوني محمد بن أحمد، وهو اسم نبيّنا محمد صلوات الله وسلامه عليه، وكُنِيَتْهُ كُنْيَةُ الصاحب الصديق ﷺ. وفي ذكره لكلمة "وَنِيَّ" تبرز السمة المعجمية لرسائل المعري.

وقد سلك المعري في رسالته التي بعثها إلى خاله أبي القاسم يُعزِّيه في أخيه طريقتين إحداهما طريقة القصص فذكر مصارع الجبابرة من بني إسرائيل وعواقب الملوك من سبأ وحمير والمناذرة والفساسنة والأكاسرة ومهالك الأعلام من فرسان العرب وأجوادها، ثم ذهب مذهب أبي ذؤيب الهذلي في عينيّته من وصف مصارع الحيوان، فتتبع الأساد والوعول والبقرة الوحشية والجوارح من الطير إلى الذرّات والنّمال، وهذه الرسالة لا تدلّ على شيء من الحزن والأسف بقدر ما هي تسليّة وتّعزية وثناء على الفقيّد، وعلى عقّيه، وقد جمع في هذه الرسالة من القصص والعظات والعبر ما يسلي خاله ويُعزِّيه في مصابه، ولا تعرف العرب رسالة في التعزية على هذا النحو قبل أبي العلاء. ويستمدّ المعري أفاضله ومعانيه من محفوظه الموسوعي الثّرّ من أشعار العرب ونثرهم.

يقول المعري في رسالته: "ولو عُمِّرَ حيّ سوي الله عُمَرَ الأنجم ناجياً من كل غيلة وحُتْل، فكان كما قال رؤبة رهنَ هرمٍ أو قتل"^(١)

ورؤبة هو رؤبة بن العجاج واسمه العجاج عبد الله بن رؤبة بن حنيفة، من شعراء الإسلاميين وفصحائهم، نزل البصرة، وهو من مخضرمي الدولتين مدح بني أمية وبني العباس ومات في أيام المنصور وقد أخذ عنه وجوه أهل اللغة، وكانوا يقتدون به ويحتجّون بشعره، ويجعلونه إماماً وكُنِيَ أبا الجحّاف وأبا العجاج^(٢). وقال "عُمَرَ الأنجم" لبقائها إلى الساعة.

(١) رسائل المعري: ١٠٠.

(٢) الأغاني، دار الثقافة

الإشارات الأدبية للشعر والشعراء في إخوانيات أبي العلاء المعري

وفي قوله "رهن هرم أو قتل" إشار إلى قول رؤية بن العجاج، وكان نزل ماء من المياه فأراد أن يتزوج امرأة فقالت له: ما سنك؟ ما مالك؟ ما كذا؟ فأنشأ يقول:

لما ازدرت نقدي وقلت إيلي
تألفت واتصلت بعُكل
تسألني عن السنين كم لي؟
فقلت لو عُمِّرتُ عَمَرَ الحِسلِ
أو عَمَّرْتُوحَ زَمَنَ الفِطْحَلِ
والصَّخْرُ مَبْتَلُ كَطِينِ الوَحْلِ
أو أنني أوتيتُ عِلْمَ الحُكْلِ
عِلْمَ سُلَيْمَانَ كَلَامِ النَّمْلِ
كنت رهينَ هَرَمٍ أو قَتْلٍ^(١)

وقد خاتَلَ رؤية المرأة، فلم يُجب عن سؤالها ولم يُخبرها عن سنّه وكان بلغ الستين. وأشار المعري في هذه الرسالة أيضاً إلى وصف الأسد ومصرعه بقوله: "ولا يُفْلِتُ من مخالب الدهر أسدٌ ورذ، ليس في طعامه السُّحْم ولا المُرد، ولكنه يفترسُ كلَّ شارق، صيدا لا يفتاله فعل السارق، ولكنه يأبَس ويختبِس، كأن مقلتيه جذوتا حريق، بل نارا فريق، إذا أحسَّته العانة ولَّت نافرهُ، وإذا آنسته الرُفقة دَعَرَ السافره، يقوتُ بأخوف موضع، شبليْن عند حصاء مُرضع، فكم لديه من فريس، صاحب خَلْقٍ دريس، فجَع بكسيه أيتامه، وصرفه عما كان اعتامه، عافَ صيدَ الوَحش فتركها، واستطعم لحومَ الإنسِ فاستدرَكها... فاجتازَ به وهو رثيال، رَجُلٌ في أيديهم القسيُّ والنُّبال، فوثبَ إلى مارِدٍ فاعتقَه، وفرَّى جسده، فرمته تلك الصُحابة بمعامل وقطاع، وهو يظنُّ أنّه ليس بمُستطاع، فجعلوه بسهامهم كابنٍ أنقد..."^(٢)

(١) لسان العرب: فطحل.

(٢) رسائل المعري: ١٠٣ - ١٠٤

وقول السَّحْم: الغريان، وكانت العرب تتعايرُ بلحم الغريان ولا تأكله، والمُرد: صغار السن، واستعاره لصغار الحيوان، فهذا السبع لا يصطاد إلا القوي، والمُرد أيضاً ثمر الأراك، ولا أظنه المراد، فهو لا يصيد إلا الفُرسان، والشارق: الصباح، ويأبس: يقهر ويُذلّ، ويختبس: يغنم، والعانة: القطيع من حمر الوحش، والسافرة: المسافرون، وحصاء مُرضع: اللبوة فليس لها عرفاً كالأسد، والحصاء: الإبل التي ليس عليها وبر، وخَلَق دريس: ثوب ممزق لأنّ الليث قد أكل صاحبه فمزق عنه ثوبه، وفي قوله "ناراً فريق" والفريق هو الحي، إشارة إلى بيت المتبّي الذي يصف فيه الأسد:

ما قُوبِلت عيناه إلا ظُنّتا تحت الدجى نارَ الفريق حلولا^(١)

واعتامه: قصده، ثم ذكر أن هذا الأسد قد ترك صيد الوحش واستطاب لحوم الإنس وقد عُرف عن الأسد وسائر السباع أنّها إذا ذاقَت لحمَ الناس مرة لم تطلب غيره، وهذا لما يحتويه جسم الإنسان من الملح استطابة له وتلدأً به، وفيه إشارة إلى قول كعب بن زهير في وصف الأسد:

لَذاك أَهيبُ عِندي إِذ أَكَلَمُهُ وَقيلَ إِنَّكَ مَنسُوبٌ وَمَسْؤُولُ
مِن ضيَعَمٍ مِّن ضِراءِ الأُسَدِ مَخْدَرُهُ ببطنٍ عَتَرَ غيلٌ دونهُ غيلٌ
يَفدُو فيلَعَمُ ضِرغامينَ عيشُهُما لَحْمٌ مِّنَ الناسِ مَعْفُورٌ خَراديلُ^(٢)

وقوله "فاجتازوا به وهو رثال" إشارة إلى حديث أبي زيد الطائي حرمله بن المنذر يصف الأسد، والنص طويل نجتزيء منه بالتالي "فأقبل أبو الحارث من أجمته، يتظالع في مشيته، كأله مجنوب أو في هيجار، لصدرة نحيط ولبلاعمه غطيظ، ولطرفه وميض، ولأرساغه نقيض، كأنما يخبط هشيما، أويطأ صريما، وإذا هامة كالمنجن، وخذ كالمن، وعينان سجراوان، كأنهما سراجان يتقدان، وقصرة ريلة، ولهزيمة رهلة وكثد مغبط، وزور مفرط، وساعد مجدول، وعضد مفتول، وكف شتة

(١) ديوان أبي الطيب، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان: ١٤٦.

(٢) ديوان كعب بن زهير، صنعة أبي سعيد السكري، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة: ١٩٥٠: ٢٢.

الإشارات الأدبية للشعر والشعراء في إخوانيات أبي العلاء المعري

البرائن، إلى مغالب كالمحاجن، فضرب بيديه فأرْهَجَ، وكشَرَ فأفرَجَ عن أنياب كالمعاول، مصقولة غير مفلولة، وفمٍ أشدَّق، كالغار الأخوق، ثم تمطَّى فأسرع بيديه، وحفزَ وركيه برجليه، حتي صار ظلُّه مثليه، ثم ألقى فاقشعرَّ، ثم مثَّل فاكفهرَّ، ثم تجهمَ فازبأرَّ، فلا وذو بيته في السماء، ما اتقيناها إلا بأخ لنا من فزازة، كان ضخَم الجزارة، فوقصه ثم نقضه، فقضقَضَ مَتَّيه، فجعل يلعُ في دمه، فذمرتُ أصحابي، فبلائي ما استقدموا، فهجَّهنا به، فكَرَّ مُقشعرَّ الرُّبرة، كأن به شيهماً حوليا، فاختلف رجلاً أعجزَ ذا حوايا فنقضه نقضةً تزايلت منها مفاصله، ثم همهمَ ففرقر، ثم زار فجرجر، ثم لحظَ، فوالله لخلتُ البرقُ يتطايرُ من تحت جفونه، عن شماله ويمينه، فأرعشت الأيدي، واصطكت الأرجل، وأطت الأضلاع وارتجت الاسماع، وشخصت العيون وتحققت الظنون، وانخزلت المتون، ولحقت الظهور بالبطن ثم ساءت الظنون، فقال عثمان رضي الله عنه: اسكت قطع الله لسائك فقد أرعبت قلوب المسلمين^(١). وابن أنقد: القنفذ، ولكنَّ أبا زبيد لم يذكر في خطبته قتل الرجال للأسد لأنَّ حديثه انقطع، أما المعري فقد خلصَ إلى أن الرجال قتلوا السبع بعد ذلك وذكر هذا في قصته ونلاحظ أن أبا زبيد استخدم في حديثه "ذو الطائية" وهي بمعنى الذي. والمتتبع لمذهب أبي العلاء في كلِّ قصصه عن الحيوان يخلصُ إلى أن القدر لا يُبقي على أحد فلا بُدَّ للسبع بعد قتل الرجل أن يُقتل، ليُدلَّ بذلك على أن الفناء غايةُ كلِّ حي، وهذا الظاهرة أوضح ما تكونُ في كتابه الفصول والغايات.

يقول المعري: "وهل يُعصم من قضاء الله عُلجٌ وحشي، مرَّت به غداةٌ وعشي، وهو أرين ليس ببجيل، يخلطُ شحيجه بالسجيل، له جدائدُ ثمانٍ أو خمس، ما وطؤها بالجدد همس، رعين بقلًا وسيما، وأطرَدن صلالًا وسيما، وطارت عنهن العقائق، وبقيت منهن الحقائق، حتى إذا يبس عميمٌ روض، تتبع بها أثرُ كلِّ نوض، فورَدن وقد طلَعَ ذلك السُّرحان وكلاهما بالقدر حان"^(٢) والأرين: النشط، والبجيل: الغليظ،

(١) جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٣٣: ٢٨١-٢٨٣.

(٢) رسائل المعري: ١٠٥.

والشحيج: صوت الحمار الوحشي، والسحيل: الثَّهَاق. وجعل أبو ذؤيب للحمار أربع جدائد، وهي الأتن وجعلهنّ المعري خمساً أو ثمانياً، أما أبو ذؤيب فقد ألجأته القافية، ولا أدري لأية غاية جمع المعري بين الثمانية والخمسة، والجَدَد: الأرض الغليظة، البقلُ الوسيم: الحَسَنُ النبات، وصيلاًلاً: عطاشاً، وقوله "طارَت عنهنّ العقائق وبقيت منهنّ الحقائق" أي لسنَ حديثات السن بل هنّ شوابٌ فتّيات، والنبت العميم: الطويل الملتفّ، والنُّوض: الماء، والسُّرحان: الفجر الكاذب، وقوله "حان" من الحين وهو الموت أي حانت منيئته.

أشار إلى عينية أبي ذؤيب الهذلي:

والدهرُ لا يُبقي على جدائِهِ	جَوْنُ السَّراةِ له جدائدُ أربع
صَخْبُ الشَّوارِبِ لا يزال كأنَّهُ	عَبْدُ لآل أبي ربيعة مُسْبِعُ
أكل الجَمِيمِ وطاوَعته سَمَحُ	مِثْلُ القناةِ وأزَعَلته الأَمْرُ
بقرارِ قِيغانٍ سَقَّاهَا وابلٌ	واهِ فَأُتْجَمَ بُرْهَةٌ لا يُقْلَعُ
فورَدَنَ والعَيُوقُ مقعدُ رابيءِ الدِّ	ضُرْباءُ فَوْقَ النَّجْمِ لا يَتَلَعُ ^(١)

ويستطرد قائلاً "فانصرف بها إلى شريعة، فجلس للوحوش الشريعة، فلما كان في آخر الليل وردت الأتن جمّة العين، وأمامها كدراً عذام، قُرب منه الحَتْفُ الهُذام، فرماه مطعمٌ وشيقي الأوابد، فوصف بفارضٍ أو ككابد، فعند ذلك صرعه، فبعُدت الحلائلُ عن أليف صادف مصرعه، ونهض إليه ذو مُصدق، نقله إلى العيال الدردق^(٢)".

والشريعة الأولى: مورد الماء، والثانية: حمر الوحش يقال: شرعت الدابة في الماء أي دخلت فيه لتشرب، وجانس المعري بينهما "والثانية في النص الذي بين يديّ" الوحوش السريعة" وهو تصحيف، والجمّة: الماء الكثير، والعُذام: الممتع لوجود السباع والصيادين عليه، والحتف الهُذام: الموت الوحي، وأصل الهُذام: السيف الحديد القاطع،

(١) شرح ديوان الهذليين، صنعة أبي سعيد السكري، تحقيق عبد الستار أحمد فراج: ١٨/١.

(٢) رسائل المعري: ١٠٦.

الإشارات الأدبية للشعر والشعراء في إخوانيات أبي العلاء المعري

واستعاره أبو العلاء للموت، المُطعم: الذي يُطعم، وشقيق الأوابد: لحمها المقدّد، ووصفَ : قرب منه بحثُ أمكنه وصفه، والفارض: الضخمة السمينة، والكابد: العظيمة الوسط، وذو مَصْدَق: رجلٌ صادق الحملة، والدردق: الصبية الصغار. يُشير إلى قول أبي ذؤيب:

فَشَرَعَنَ فِي حَجَرَاتِ عَذْبٍ بَارِدٍ خَصَبِ البَطَاحِ تَغِيبُ فِيهِ الْأَكْرُعُ
فَشَرَيْنَ ثُمَّ سَمِعَنَ حَسّاً دُونَهُ شَرَفُ الْحِجَابِ وَرَيْبُ قَرَعٍ يَقْرُعُ
يَعْتُرُّنَ فِي عَلَقِ النَّجِيعِ كَأَنَّمَا كُسَيْتُ بُرُودَ بَنِي تَزِيدٍ الْأَذْرُعُ^(١)
وفيه إشارة أيضاً إلى بعض أبيات لبليد وهي:

أَفْتَلَكِ أُمُّ وَحْشِيَّةٌ مَسْبُوعَةٌ خَذَلَتْ وَهَادِيَةَ الصَّوَارِ قَوَامُهَا
خَنَسَاءُ ضَيَّعَتِ الْفَرِيرَ فَلَمْ يَرَمْ عَرَضَ الشَّقَائِقِ طَوْقَهَا وَبُعَاْمُهَا
لَمَعْفَرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوُهُ غَبَسٌ كَوَاسِبٌ لَا يُمْنُ طَعَامُهَا^(٢)

وفيها أيضاً إشارة إلى أبيات القطامي عمر بن شبيب بن عمرو:

كَأَنَّ قَتُودَ رَحْلِي حِينَ ضَمَتِ حَوَالِبَ غُرَزًا وَمَعِي جِيَاعَا
عَلَى وَحْشِيَّةٍ خَلَجَتْ خُلُوجاً وَكَانَ لَهَا عَلَى طِفْلِ فُضَاعَا
فَكَرَّتْ عِنْدَ فَيْثِهَا إِلَيْهِ فَأَلَفَتْ عِنْدَ مَرِيضِهِ السَّبَاعَا
لَعِبَنَ بِهِ فَلَمْ يَتْرُكَنَّ إِلَّا إِهَاباً قَدْ تَمَرَّقَ أَوْ كُرَاعَا^(٣)

ثم انتقل المعري إلى وصف الوعل الممتع في الجبال ومصرعه يقول: "وما حيض سهمُ الحدثانِ عن أعصمِ أبي أغفار. كان من الإنس شديد النُّفَار، يرود في قَانٍ وَعُثْم، لا يخاف على ولده من اليُثْم، ويرد خصرأ ليس بطَرْق، جَلِدَتِ المِداهُنُ به أم البُرْق، فهو أزرقُ شديد الصفاء، ليس على الوارِدة به من خفاء، لما طَالَ مُكْثُهُ فِي نَيْقٍ، يكون دونه وكرُ السَّوْذَنِيْق، أَطْرَدَ مَلِيْكُ إِسْوَارَا، مازال يصرع بسهامه صِوَارَا، فَأَلْجَأَ فَقْرٌ وَفَزَعُ،

(١) ديوان ديوان الهذليين: ٢٢.

(٢) ديوان لبليد بن ربيعة، دار صادر، بيروت، د. ت: ١٧١.

(٣) الأغاني: ١٢٩/٢.

إلى سامية عليها القرع، فلما اتّصل فيها طَواه، وعلم أن ربّه قد أغواه، رمى الفادرَ فأصاب كبده، ونهض ليُزيلَ وبده، فأخذ المديّة فبضعه، وأوقد ناره موضعه، فأكل من بضيعه قليلاً، وانصرف وتركه مليلاً^(١). حيض السهم: وقع بالرميّة وقعاً غيرَ سديد، والأعصم: الممتع في أعالي الجبال، والأغفار: صفار إناث الوعول، والقان: شجر النبع، والعُثم: شجر الزيتون الذي لا ثمر له، أي أن هذا مرعى الوعل، والخَصَر: الماء البارد، والطَّرَق: الماء الذي شرب منه وبيل فيه، وجلدت صارت جليداً، والمداهن: جمع مُدْهَن: نُقْرة في الجبل يُستتَقع فيها الماء، والبُرْق: جمع برقة وهي الحجارة يخالطها الرمل، ويقال للماء الشديد الصفاء أزرق لأنّ صورة السماء تتعكس فيه لشده صفائه، والنيق: أرفع موضع في الجبل، والإسوار: الرامي، وقد أرسله ملكٌ أو سيّد ليصطادَ له، والسوّذنيق: الشاهين من الجوارح، والصيوار: القطيع من بقر الوحش، وفَرَعَ: لجأ، والقرع: قطع السحاب، وطواه: الطّوى: الجوع، وأغواه: يعني أن ربّه الذي أرسله للصيد عزم عليه ألا يعود بغير صيد، والفادر: الوعل الممتع في الجبل، ووَبَدَه: حاجته وبؤسه، والبضيع: اللحم، والمليل: المحترق في الملة.

مشيراً إلى أبيات صخر الغي التي يقول فيها:

فعينى لا يبقى على الدهر فادرٌ	بتيهورة تحت الطّغاء العصائب
تملّى بها طول الحياة فقرئه	له حيداً أشرافها كالرواجب
يبيت إذا ما أنس الليل كانساً	مبيت الغريب ذي الكساء المحارب
أتيح له يوماً وقد طال عمره	جريمة شيخ قد تحبّ ساغب
أحاط به حتّى رماه وقد دنا	بأسمر مفتوق من النبل صائب ^(٢)

يريد الشاعر "فيا عيني، ولا يبقى على الدهر لا يدوم له البقاء، والفادر المُسنُّ من الأوعال، والتيهورة الهوة في الجبل وفي الرمل، والطّغاء السحاب، والعصائب العمائم، أي

(١) رسائل المعري: ١٠٧.

(٢) ديوان الهذليين: ٢٤٩.

الإشارات الأدبية للشعر والشعراء في إخوانيات أبي العلاء المعري

إنَّ السحاب على هذا الجبل مثل العمائم، وتملأ: تمتع، والرواجب السُّلَامِيَّات، يقول: يبيت مُنتَحِيًّا كما ينتحي رجل غاضب أهله وولده فأخذ كسَاءه ويات وحده، والوعل لا يبيت أبداً إلا منفرداً، وقوله: "جريمة شيخ" أي كاسب شيخ، وتقول العرب: فلانٌ جريمةُ أهله أي كاسبُهُم. تحنَّب: اُحدودب ودبَّ، وساغب: جاثع. وفي قوله " فأكل من بضيعه قليلاً، وانصرفَ وتركه مليلاً" إشارة خفية إلى قصة البحري مع الذئب عندما قتله وشواه ونال خسيساً منه ثم تركه، ولا يستقيم كلام المعري هاهنا من أنَّ الإسوار أكل قليلاً من الوعل ثم تركه فهو صيادٌ قد أرسله مليكُهُ، ولا بدَّ أن يحمله إلى من بعثه ليجعل من لحمه قديداً، ولكنه أراد أن يُقحَم قصة البحري من طَرَفٍ خفي وذلك أن عقله مزدحمٌ بالمعاني التي يضيق لفظه عنها، وهذا ضربٌ من تداخل المعاني في حديث المعري فليس همُّه أن يروي القصة، ولكنَّ همُّه أن يدلَّ على علمه باللغة وكلام العرب وأخبارهم وأشعارهم. وفي حديثه عن الوعل وامتناعه في أعالي الجبال وعُزلته عن الناس ما يحكي حال

المعري في عُزلته عن الناس ونأيه عن مخالطتهم وخوفه من شرورهم، وهو القائل:

بُعدي مِنَ النَّاسِ بُرٌّ مِنْ سَقَامِهِمْ وَقُرْبُهُمْ لِلْحَجَى وَالْدِّينِ أَدْوَاءُ

وللمعري ولعٌ غريب بذكر البقرة الوحشية، وما تلقى من السَّبَاع في نفسها وولدها، يقول " وأسفي على فائتِ قُريه كوحشيَّةٍ تُرْبُ طِلا، في صفاصفٍ وفلا، اتخذت بيتاً من الخَدَر، في ظلِّ الفاردة من السُّدَر، ثم هكعت في الهجير، فدرج الطفلُ وهو لأبي جعدة نصيبٌ وكفل، فلما قضت الرُّقاد، نظرت فإذا بقيَّةُ أجداد، فهي بين وَلَهٍ وَعَلَه" (١). تُرْبُ: تُرْبِي، والطلأ: الصغير، الصفصف: الفلاة، الخَدَر: المطر، أي اتقاءً للمطر، وهكعت: سكنت واطمأنت، والولَه: ذهابُ العقل من الحُزن، والعلَه: الدَّهْش والحيرة. ولعلَّ هذا من باب " هذا جناه أبي علي". وهذه القصة التي ساقها أبو العلاء متواترة في شعر الأقدمين، وأكثر من فصلٍ فيها لبيد بن ربيعة العامري ؓ في معلقته، وهي في وصف البقرة الوحشية التي أكل السبع ولدها، ونظر المعري إلى أبيات لبيد جليَّة واضحة.

(١) رسائل المعري: ٢٩.

ثمَّ ينتقل المعري إلى الجوارح من الطيور وما تلقى من سوء المصير، يقول "وما تغلظُ أقدار الله السابقة بالتجاوز عن شغواء طُلوُب، لعواسلِ المهمَّة إلى الوكرِ جَلُوب، تؤهلُ بها رضوى أو تدوم، وكأنَّ حَظماً قدوم، فغدت يوماً في قُرَّة، تنفض عن جناحها ضريب السَّبرة، فرأت على الشَّحط غزلاً، فأرادت أن تضرب به على المُقعد هُزلاً، فخانت تأمل دركٍ خير، فدَحَضَ عنها الظَّفَر بالمير، ومرت على ريدٍ ناب، فأعنت جناحها بإخناب، فسقطت وهي برُمق، في الأرض النزهة أو الغمقة، فأقبل إليها ثُعالة، وطالما أزهقت نفسه، وأثكلته ولده وعرسه فجعل أشلاءها للعيلة قُوتاً، وكان أجلاً موقوتاً، وثرك بشاهقٍ فرخاها، ولخاه القدر ما لخاها"^(١) والشُّقا: إشراف المنقار الأعلى على الأسفل، ومن هنا قيل للعُقَاب: شغوب، وانعواسل هي الذئب، المهمَّة: الأرض القفر، وفي قوله "تؤهل بها رَضوى" أي تعمُر، وفيه إشارة خفية إلى قول ذي الرُّمَّة:

وَأَضَحَّتْ مَبَادِيهَا قِفَاراً بِلَادُهَا كَأَنَّ نَمَ - سَيُوى أَهْلٍ مِنَ الْوَحْشِ - تُؤْهِلُ^(٢)

وأحسب أن في قوله "أو تدوم" تحريفاً، وأحسبه اسمَ جبل لحقه تحريف وهماً من الناسخ أو الناشر، وأما قوله "وكانَّ حَظماً قدوم" يريد أن حَظَمَ هذه العقاب يُشبه القدوم، وهي الفأس برأسين، والقُرَّة: البرد، والضريب هو الصقيع والجليد، والسَّبرة: الغداة الباردة، والشَّحط: البعد، وتضرب: تبتغي الرزق، والطيور الضواريب: الساعية في رزقها، والمُقعد هُزلاً: فرخ العقاب الجائع، وخانت: اختطف، ريدٌ ناب: حرفُ جبلٍ ناتيء، وأعنت جناحها بإخناب: قطعها، ومعنى أخناب: قطع، والرُمق: آخر النفس، والأرض النزهة: البعيدة من الريف، الغمقة: القريبة من المياه والخضر، والعيلة: العيال، ولخاه: أسعطه أي صبَّه في أنفه، ويقال أسعطه الرُمح: أي طعنه به في أنفه، أي أنَّ الثعلب لقي ما لقيته العقاب، وفي قوله إشارة إلى أبيات صخر الغي:

ولله فتخاءُ الجناحين لقوةً توسدُ فرخيها لحومَ الأرانب

(١) رسائل المعري: ١٠٧.

(٢) ديوان ذي الرُّمَّة: ٣٩٧.

فخات غزالا جائها بصُرت به لدى سُمُراتٍ عند آدماء سارب
فمُرت على رير فأعنت بعضها فخرت على الرجلين أخيب خائب
تصبح وقد بان الجناح كأنه إذا نهضت في الجو مخراق لأعب
وقد ترك الفرخان في جوف وكرها ببلدة لا مولى ولا عند كاسب^(١)
قوله فتخاء الجناحين: أي ليئة مفصل الجناح. والقوة: المتلطفة التي إذا أرادت شيئا تلطفته. وخاتت: انقضت. وأدماء: يعني ظبية سارب تمشي مطمئنة،. وقوله: ببلدة لا مولى: أي لا وليّ لهما يقوم بأمرهما إلا الله عز وجل. إلا أن المعري زاد على كلام صخر الغي أن الثعلب لقي بعد ذلك ما لقيته العقاب من سوء المصير.

ثم يعرج المعري على ذكر الظليم، يقول "وما رقدت عيون الحوادث عن أريد صعل، غني عن الحذاء والنعل، لا يشرب في شريعة ولا فرو، يجتزي بالشرى والمرو، هيق لمّاح، كأنه جمّاح، لا بد له من حتف يوبقه، يفر من خشيته ولا يسبقه، إمّا بسنان فارس، أو نازلة من الدهارس، فأصابته منكب صاعقة، فإذا المنية به ناعقة"^(٢) الأريد الصعل: ذكر النعام والصعل: الصغير الرأس، والفرو: القربة، والشرى: الحنظل، والمرو: الصخر، وتقول العرب إن الظليم يتغذى بالصخر، والبيق: ذكر النعام، وقوله "جمّاح" أحسب أن الصواب "ذو جمّاح" أي جامع، والدهارس: واحدها دهرس وهي الداهية.

إشارة إلى أبيات صخر الغي:

أرى الأيام لا تبقي كريماً ولا العصم العواقل في صخور
ولا العصم العواقل في صخور كُسين على فراسنها خداما
أُتيح لها أقيدر ذو حشيف إذا سامت على الملقات سامي
خفي الشخص مقتدر عليها يسن على ثمانلها السما
فيبدرها شرايعها فيرمي مقاتلها فيسقيها الزؤاما^(٣)

(١) ديوان الهذليين: ٢٨٧.

(٢) رسائل المعري: ٥٠.

(٣) ديوان الهذليين: ٢٨٧.

والفرَسَن من البقرة والجوز بمنزلة الكفّ من الإنسان، والخِدام : جمع خَدَمَة وهي سيرٌ يشدُّ على رُسخِ البعير، وأُقيدر تصغير أقدر هو من الرجال القصيرُ العُنُق، ومن الخيل الذي تقع رجلاه موضعَ يديه، وسامت: أي استمرت في سيرها. والملقات: صخور ملس، والثميلة موضع الطعام وأصله بقيّة الطعام.

وكتب المعري إلى خاله في شأن عجوز كانت تخدمه فاستدعاها خاله إلى حلب لضبط منزله، فاعتلّ أخوها فأرادت الخروج إليه، ولحقت أبا العلاء علّة فأظهرت لخاله أنها تريد الخروج إلى أبي العلاء لأنه كان في حاجة إليه، وفي ذلك يقول المعري: "وحياته الكريمة عليّ لو أنّ بي حمى زيد الخيل، أو غُدّة عامر بن الطفيل، لما رأيتُ أن استصرخ بالشواب من ذوات البرين فكيف بعجوزٍ في الغابرين، وأيُّ شيء أُبقي في تلك المرأة رفق الله بها، لقد كنت هممتُ أن أجئ بنائب عنها في إخراجي للحمام والسدر، وإيقاد النار ومراعاة القدر"^(١)، وحمى زيد الخيل هي حمى المدينة، والغُدّة: طاعون الإبل، قلما تسلم منه، وقوله "وحياته: قسم"، والبرين: جمع بُرة، وهي حلقة تركب في الأنف للزينة، والغابرون: الماضون فهي عجوزٌ فانية، وربط الحمام بالسدر لأن ورق السدر غسول.

وعامر هذا الذي أشار إليه المعري هو عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري، وقد قدم وفد بني عامر، فيهم عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس أخو لبيد الصحابي لأمه - وكانا رئيسي القوم ومن شياطينهم - فغدا عامر بن الطفيل عدو الله على رسول الله ﷺ وهو يريد الغدر به. وقال قومه: يا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلم. فقال: والله لقد كنت آليتُ أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقيي فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش. وأراد أربد وعامر الغدر برسول الله ﷺ فعصمه الله تعالى منهما، ثم إن عامراً قال للنبي ﷺ: أتجعل لي نصف ثمار المدينة، وتجعلني وليّ الأمر من بعدك وأسلم، فأبى عليه الصلاة والسلام، فانصرف عامر وقال "أما والله لاملأنها عليك خيلاً ورجالاً،

(١) رسائل المعري: ٤٣.

الإشارات الأدبية للشعر والشعراء في إخوانيات أبي العلاء المعري

فلما وُلِّي قال رسول الله ﷺ "اللهم اكفني عامر بن الطفيل. وخرجا راجعين إلى بلادهم، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقه، فقتله الله في بيت امرأة من بني سلول فجعل يقول "يابني عامر، أغدة كغدة البكر وموت في بيت امرأة من بني سلول"^(١). قال الميداني في جمهرة الأمثال "وسلول من أذل العرب، قال الراعي النميري:

إلى الله أشكو أنني كنت نائماً فجاء سلولي فبال على رجلي
فقلت لأصحابي إقطعوها فإنني كريم وإني غير مُدخلها رحلي"^(٢)

أما قوله زيد الخيل فيعني زيد بن مهلهل بن زيد يقول البغدادي: "وزيد الخيل هو كما قال ابن عبد البر: زيد بن مهلهل بن زيد بن منهب الطائي، قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمّاه زيد الخير، وقال له: ما وصِف لي أحد في الجاهلية فرأيتُه في الإسلام إلا رأيته دون الصفة غيرك، وأقطع له أرضين في ناحيته، وكان زيد الخيل شاعراً شجاعاً، بهمة كريماً، وكان بينه وبين كعب بن زهير هجاء، لأن كعباً اتهمه بأخذ فرس له. قيل مات زيد الخيل عند منصرفه من عند النبي صلى الله عليه وسلم محموراً. فلما وصل إلى بلده توفي ويقول في هذه الحمى:

أمرئجل صَحبي المَشارِقُ غُدوة وأترك في بيتِ بَرْدَةٍ مُنجِد
هُنالِكَ لو آتَى مَرَضْتُ لَعَادَنِي عَوَائِدُ مَنْ لَمْ يُشَفَّ مِنْهُنَّ مُجْهِد"^(٣)

فالمعري يريد أن يبين لخاله أنه ليس في حاجة إلى العجوز لتخدمه ولو كانت به حمى زيد الخيل، أو غدة عامر بن الطفيل. وكلا الداءين لم يسلم صاحبه. لما احتاج إلى ذوات الخلخال من الشواب الفتيات فكيف بتلك العجوز التي لم يبق منها شيء.

ويقول المعري في رسالته السابقة "وأنا أسأله أدام الله عزه ألا يَقِفْها على كتابي هذا لئلا يُدركها ما يُدركُ الأدميين إذا سمعوا في نفوسهم مثل ذلك، ولو قدرتُ لحملتُ إلى

(١) خزائن الأدب: ٤٩٣/٢.

(٢) مجمع الأمثال، الميداني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧: ٤١٠.

(٣) خزائن الأدب: ٤٩٣/٢.

منزله أم عمرو الملك بسيمطيهها، أو مارية الفسانية بقرطيهها، ليكونا في داره خادمتين وحسبه بشرف هاتين^(١).

أم عمرو هي أم عمرو بن هند ملك الحيرة، وهي هند بنت الحارث بن عمرو بن حُجر آكل المُرار، وكانت تصف نفسها بأنها الملكة بنت الأملاك، أما مارية الفسانية هي مارية بنت ظالم بن وهب وأختها هند الهنود امرأة حُجر آكل المُرار الكندي، وهي أم ولد جفنة.

الذين قال فيهم حسان بن ثابت ؓ :

أولادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ

قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ

ويقال إنها أهدت إلى الكعبة قرطيهها، وعليهما درتان كبيضتي حمام، لم يرَ الناس مثلهما، ولم يدروا ما قيمتهما، وفي المثل "خذه ولو بقرطي مارية"، يُضربُ في الشيء النفيس، أي لا يفوتك^(٢). أرادَه ألا يُطلعَها على كتابه خشية أن تعلم أنه مستغن عنها، أو أنه وصفها بأنها عجوزٌ في الغابرين على طول خدمتها له. ونلاحظ أنه اختار في التمثيل امرأة من بنات ملوك الفساسنة، وكانت غسان مملكة عربية على تخوم الروم، وامرأة من بنات ملوك الحيرة، وهي مملكة عربية على تخوم فارس. وكلا الهندين كانت يمانية؛ فالأولى من لخم وهي قبيلة يمانية، والثانية من غسان وهي يمانية أيضاً، وتتوخ قبيلة أبي العلاء أيضاً من اليمن، فهل هذه عصبية من أبي العلاء لأهل اليمن كأنه يجعل العزة لأهل اليمن! أم أنه خشي أن يجعل خادمته خاله مَضْرِبَتَيْنِ فيستعدي على نفسه المضربين.

وكتب في إحدى رسائله يستعطف أحد الأشخاص أن يطلق محبوساً لأنه له أمّاً ضعيفةً، وجاءت إليه أم المحبوس شاكية مستشفعة تزعم أن لصاً دخل عليها في آخر

(١) رسائل المعري: ٥١.

(٢) مجمع الأمثال، الميداني: ٤٧٤/١.

الليل فذبح لها ولابنها أربعاً من الدجاج، وهي متفجعة لذلك، فيقول له: "والدجاجة إذا سمحت بذوات الفرقي فهي عند الفقير أكرم من الناقة الغزيرة، والجدي عند المعدم مثل عليان عند كليب وائل، وشاة أم معبد لديها خير من زبأ ناقة أبي دؤاد التي كانت إذا حلّ عقالها تبعها الحي أين اتجهت"^(١) والفرقيء: القشرة الرقيقة التي تحت القيض، ويعني هنا البيض، الناقة الغزيرة: الغزيرة اللبن، وعليان: "هو اسم فحل لكليب بن وائل، ولما عقر كليب ناقة جسّاس قال جسّاس: لنقتلن غداً فحلاً هو أعظم من ناقتك، فبلغ ذلك كليباً فظنّ أنه يعني فحله الذي يسمّى عليان، فقال: "دون عليان خرط القتاد" فصار مثلاً، وكان جسّاس يعني بالفحل نفس كليب.

وذكر المعري عليان في شعره:

إذا أنا عاليتُ القَتودَ لرحلي فدونَ عليانَ القتادة والخُرطُ^(٢)

أما أم معبد فهي عاتكة بنت خالد رضي الله تعالى عنها، وكان منزلها بقديد، ماءً بالحجاز، وهي التي نزل عندها رسول الله ﷺ حين هاجر إلى المدينة^(٣) وقصة الشاة العجفاء التي درّت عندما مسح رسول الله ﷺ بيده الشريفة على ضرعها معروفة.

وأبو دؤاد هو جويرية بن الحجاج وكانت له ناقة يقال لها الزبأ، والزبأ هي الناقة الكثيرة الوبر، وكان بنو إباد يتبركون بها، فلما أصابتهم السنة تفرقوا ثلاث فرق، فرقة سلكت في البحر فهلكت، وفرقة قصدت اليمن فسلمت، وفرقة قصدت أرض بكر من وائل فنزلوا على الحارث ابن همام، وكان السبب في ذلك أنهم أرسلوا الزبأ وقالوا أنها ناقة ميمونة، فخلوها فحيث توجهت فأتبعوها، وكذلك كانوا يفعلون إذا أرادوا نجعة، فخرجت تخوض العرب، حتى بركت بفناء الحارث بن همام، وكان أكرم الناس جواراً وهو جار أبي دؤاد المضروب به المثل فقال أبو دؤاد يمدح الحارث ويذكر ناقتة الزبأ:

(١) رسائل المعري: ١١٤.

(٢) سقط الزند: ١٠٩.

(٣) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، دار صادر، بيروت: ٢٨٨/٨.

فإلى ابنِ همام بن مُرَّةٍ أصدعتُ ظعنَ الخليطُ بهم فقلّ زياؤها
أنعمتَ نعمةً ماجدٍ ذي مِنَّةٍ نُصبتَ عليه من الغلا أظلالُها
وجعلتَنا دون الوليِّ فأصبحت زبَاءُ مُنقطِعاً إليك عقالُها^(١)

فالمعري يُريد بوصفه هذا أن يعظّم من قدر هذا الدجاج عند أهله إذ ليس لهم غيره، ثم جعل الجديّ عند المعدم خير منزلةً من عليّان عند كليب وائل، وجعل شاة أم معبد رضي الله عنها أكرم من الزبَاء ناقة أبي دؤاد.

تدلُّ هذه الرسالة على أن أبا العلاء المعري كان مقبول الشفاعة عند الرؤساء والأمراء، ولما زار الرحالة ناصر خسرو الشام، ودخل المعرة ذكر أنّه زار أميرها أبا العلاء المعري، وظنّه أميراً لشدة تعظيم الناس له، والفُرس لا تفعل هذا إلا للملوكها، وشفاعته لأهل المعرة عند صالح بن مرداس مشهورة، وقبل صالح شفاعته رغم إغلاظ المعري له.

ويستطرد المعري قائلاً: "لعل أصوات هذا الدجاج كان في أذن هذا النصرانيّ أحسن من غناء معبد والغريض، فأما أمّه فلا شك أنها تعدُّ البيض من أكبر عُدة، وأنفس ذخيرة تضمّد به عينها إذا اشتكت، وتجمع منه الفاردة بعد الفاردة، فتبتاع به دهنًا للمصباح"^(٢).

والغريضُ هو مغنٍ مُجيد، والغريض لقبٌ لُقّبَ به لأنه كان طريّ الوجه، نضراً، غصّ الشباب حسنَ المنظر فلقب بذلك، واسمه عبد الملك وكنيته أبوزيد، وكان مولداً من مولدي البربر، قالوا: كان الغريض يضرب العود وينقر بالدف وكان جميلاً وضياً وكان يصنّع نفسه ويترفّها، قال إسحاق أبو عبد الله الزبيري قال: حدثني بعض أهلي قال: حجّجنا فلما كنّا بجمّع "المزدلفة" سمعنا صوتاً لم نسمع أحسن منه، ولا أشجى، فأصغى الناس كلّهم إليه تعجباً من حسنه فسألت من هذا الرجل ف قيل لي الغريض، فتتابع جماعة من أهل مكة فقالوا ما نعرف اليوم أحد أحسن غناء من الغريض"^(٣)

(١) العقد الفريد، ابن عبد ربّه: ١٣/٥.

(٢) رسائل المعري: ١١٤.

(٣) الأغاني، دار الثقافة: ١/ ١٢٤.

أما معبد فكان غلاماً مولداً خِلاسياً من مولدي المدينة، اشتراه بعض ولد علي بن يقطين، وقد شدا بالمدينة وأخذ الفناء عن جماعة من أهلها وعن جماعة أخرى من عليّة المغنين بالعراق في ذلك الوقت. مثل إسحاق وابن جامع وطبقتهما، ولا خدم أحداً من الخلفاء إلا الرشيد، ومات في أيامه، وكان أكثر انقطاعه إلى البرامكة^(١).

ويلاحظ أن المعري ترك السجع في هذه الرسالة، ولا تخلو هذه الرسالة من روح الفكاهة، وأحسب أن ربط المعري بين صوت الدجاج وذكر النصارى صدى لقول جرير:

لما تذكّرتُ بالديرين أرقني صوتُ الدجاج وقرعُ بالنواقيس^(٢)

ويقول المعري في إحدى رسائله إلى أبي طاهر المُشرف بن سبيكة: "وثقتي بمكارمه ثقة راكب الماء بالعامّة، والحارثُ بالنعامة"^(٣) والعامّة عيدانٌ مشدودة تُركب في البحر ويُعبَرُ عليها، وهي ما يعرف بالطُوف، ويصعب غرقها، والحارث الذي أشار إليه المعري هو الحارث بن عباد وهو حكيم جاهلي، كان شجاعاً من السادات شاعراً، وفي أيامه كانت حرب البسوس، وكان الحارث قد اعتزل القوم، فلما استحرّ القتل في بكر اجتمعوا إليه وقالوا: قد فني قومك، فأرسل إلى مهلهل بجيراً ابنه، فقتله مهلهل وقال له: بؤ بشئس نعل كليب! فلما بلغ الحارث قتل ولده قال: نعم القتلُ بجير، أصلح بين ابني وائل. وكان الحارث من أحلم الناس في زمانه، فقيل له إن مهلهلاً قال لابنه حين قتله: بؤ بشئس نعل كليب، والشئس أحد سيور النعل، فلما سمع هذا غضب وخرج مع بني بكر مقاتلاً مهلهلاً وبني تغلب ثائراً ببجير^(٤) والنعامة فرس الحارث بن عباد وهي من خيل بني قيس بن ثعلبة وفيها يقول:

قرباً مربط النعامة مني لقيتُ حرباً وائل عن حيال

(١) نفس المصدر: ١١٠/١٤.

(٢) شرح ديوان جرير، محمد إسماعيل بن الصاوي، مكتبة الصاوي، مصر، ١٣٥٣: ٣٢١.

(٣) رسائل المعري: ٣٦.

(٤) خزائن الأدب، البغدادي: ١ : ٤٧-٢٧٢.

وقد ذكرها الفرزدق في مدح بنات الحارث بن عباد وذلك في مخاطبته للنوار حيث كان تزوجها، فقال:

ثُريكَ نجومَ الليلِ والشمس حيةً كرامُ بناتِ الحارثِ بنِ عَبادِ
أبوها الذي قاد النعمةَ بعدُما أبتِ وائلٌ في الحربِ غيرَ تَماذ^(١)

وربطُ المعري بين السفينة والفرس يسوق إلى الخاطر ربطه بين السفينة والناقة في قوله:

على نِجاةٍ من الفِرصادِ أيدها ربُّ القُدومِ بأوصالٍ وأضلاعِ
تُطلِّي بقارٍ ولم تجرَبْ كأنَّ طُلَيْتَ بسائلٍ من ذفاري العيسِ مُنباعِ^(٢)

والنجاة في الأصل الناقة واستعارها هنا للسفينة يقول: وقد قام بصنعها نجار ماهر وطلاها بالقار الذي يشبه ما يخرج من ذفري البعير، والذفري: الموضع عند أصول آذان الإبل من وراء، وقيل: يخرج منه سائل أسود اللون، يُشَبَّه بالقَطِران.

ومن أشدُّ رسائله حزناً رسالته إلى خاله أبي القسم بن سبيكة يعزيه في وفاة أخته التي هي أمُّ المعري، ويعتذر إليه عن عدم دخوله حلب وزيارته فيها عند رجوعه من بغداد، يقول منها "... لا أملُ بعدها خيراً ولا أزيدُ في المَحَنِ إلا إِيضاعاً وسيراً:

أنى حَلَلْتُ وَكُنْتُ جَدُّ فَرُوقَةٍ بِلداً يَحُلُّ به الشِجَاعُ فيفِرُّعُ
صَلَّى الإلهُ عَلَيْكَ مِنْ مَفْقُودَةٍ إِذْ لَا يِلَاثُكُمْ الْمَكَانُ الْبَلَقُ

ويا سلوةَ الأيامِ موعِدَكَ الحَشْرُ، موعِدٌ واللَّهُ بَعِيدٌ، لَا سَلْوَةَ حَتَّى يُوَوِّبَ عَنزِيَّ القُرْظَةَ، وَيُبْعَثُ نَبِيًّا مِنْ مَكَّةَ:

فإن ينقطع منك الرجاء فإنه سيبقى عليك الحزنُ ما بقي الدهر^(٣)

والإيضاع السير السريع، وعنزي القرظة، فيه أقوال: قيل هما قارطان وكلاهما من عَنزَةٍ، قال ابن منظور "فالأكبر منهما: يَذْكُرُ بن عَنزَةٍ، والأصغر: رَهْمُ بن عامر بن

(١) الحيوان: ١١٧/٤.

(٢) سقط الزند: ٤٩.

(٣) رسائل أبي العلاء: ٥٦.

عَنْزَةً، خرجا يجنيان القرظ فلم يرجعا^(١)، فضرب بهما المثل لمن لا يُرتجى إياهُ، قال أبو ذؤيب:

وَحَتَّى يَأْوِبَ الْقَارِظَانِ كِلَاهُمَا وَيُنْشَرَ فِي الْقَتْلِ كَلِيبٌ لَوَائِلِ

و جعلهما المعري واحداً فقال: عنزي القرظة. وقال محمد بن سلام الجمحي:

وهو رجل واحد من عنزة، ذهب يجتني القرظ فلم يثبت أنه رجع، وقول بشر بن أبي خازم يدل على أنه واحد:

فَرَجَّيْ الْخَيْرَ وَأُنْتَظِرِي إِيَّابِي إِذَا مَا الْقَارِظُ الْعَنْزِيُّ آبَا^(٢)

والبيتان "أنى حلت" لملك المزموم بن سديس العامري من الخوارج يرثي زوجته^(٣)، والمكان البلقع يعني به القبور. وقوله "ويا سلوة الأيام موعذك الحشر" لأبي صخر الهذلي، وقد رثى المعري أمه بقصيدتين من عيون الشعر العربي أولاهما:

هَاتِ الْحَدِيثَ عَنِ الزُّورَاءِ أَوْ هَيْتَا وَمَوْقِدَ النَّارِ لَا تَكْرَى بِتَكْرِيْتَا^(٤)

والثانية:

سَمِعْتُ نَعِيَهَا صُمِّي صَمَامَ وَإِنْ قَالَ الْعَوَاذِلَ لَا هَمَامَ

وفيها:

مَضَتْ وَقَدْ اكْتَهَلْتُ فَخِلْتُ أَنِّي رَضِيعٌ مَا بَلَغْتُ مَدَى الْفِطَامِ

فِيَا رَكْبَ الْمَثُونِ أَمَا رَسُولٌ يُبَلِّغُ رُوحَهَا أَرْجَ السَّلَامِ^(٥)

لقد كان المعري نسيج وحده في هذه الرسائل علماً وتصرفاً في الأساليب، وبصراً بالعلوم، راوية ثبته، سجعاً في التاريخ والأخبار، لطيف الإشارات، قائماً على العربية واللفظ، ولقد شرع في كتابة هذه الرسائل مورداً لم يسبق إليه، ويمكن للباحث أن

(١) لسان العرب: قرظ.

(٢) طبقات فحول الشعراء: ٤٧.

(٣) شرح ديوان الحماسة للخطيب التبريزي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي: ١٨٦/٢.

(٤) سقط الزند: ١٠٥.

(٥) سقط الزند: ٩٧.

يدرس نثر المعري دراسةً أدبية أو لغوية أو صرفية أو عروضية وسيجدُ فيها منهلًا ثراً لكل ما قصده من فنون العربية وعلومها .

المصادر والمراجع

- (١) النثر الفني في القرن الرابع: زكي مبارك: مطبعة السعادة، مصر، د. ت.
- (٢) صبح الأعشى: العباس أحمد القلقشندي، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان.
- (٣) الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي، مصطفى محمود، ط ٢، ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧.
- (٤) الصاهل والشاحج، أبو العلاء المعري.
- (٥) رسائل المعري: مرجليوث، مطبعة المثنى، بغداد.
- (٦) معجم الأدباء: ياقوت بن عبد الله الحموي: دار الفكر، بيروت: ١٩٨٠.
- (٧) لسان العرب- أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي- دار صادر- بيروت- الطبعة الأولى- بدون تاريخ.
- (٨) شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، أحمد بن محمد بن الحسن، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧.
- (٩) إنباه النحاة: القفطي.
- (١٠) لزوم مالا يلزم، أبو العلاء المعري، دار صادر، بيروت ١٩٦١.
- (١١) ديوان طرفة بن العبد: تحقيق كرم البستاني، المكتبة الثقافية لبنان، بيروت د. ت.
- (١٢) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، لندن، ١٩٠٢.

الإشارات الأدبية للشعر والشعراء في إخوانيات أبي العلاء المعري

- (١٣) طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام الجمحي: تحقيق محمود محمد شاكر: دار المدني بجدة: د.ت.
- (١٤) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق كرم البستاني، د.ت.
- (١٥) سقط الزند، أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري، المكتبة الأدبية، بيروت، ١٨٨٤.
- (١٦) ديوان حميد بن ثور الهلالي، تحقيق عبد العزيز الميمني، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥١.
- (١٧) ديوان المتنبّي، أبو الطيب أحمد بن الحسين، البابي الحلبي، ١٩٣٦.
- (١٨) الفصول والغايات: أبو العلاء المعري، مصر، ١٣٥٦هـ.
- (١٩) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، دار الثقافة، بيروت.
- (٢٠) رسالة الفخران، أبو العلاء المعري، تحقيق عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي، دار المعارف، ١٩٩٧.
- (٢١) شرح ديوان ذي الرمة، غيلان بن عتبة، الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي، ١٩٩٦.
- (٢٢) المفضليات، المفضل بن محمد الضبي، شرح أبي محمد القاسم بن بشار الأنباري، عني بطبعه كارلوس يعقوب لایل.
- (٢٣) جمهرة أشعار العرب، أبو زيد محمد بن الخطّاب القرشي، تحقيق علي محمد البجاوي د.ت.
- (٢٤) شرح القصائد العشر، الخطيب التبريزي، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٨٥.
- (٢٥) تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر، عبد العظيم بن ذي الإصبع، تحقيق حفني محمد شرف، القاهرة ١٩٦٣.

- (٢٦) مجالس ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى، تحقيق عبد السلام هارون، مصر، ١٩٤٨.
- (٢٧) ديوان أوس بن حجر، تحقيق محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت ١٩٦٠.
- (٢٨) ديوان أبي الطيب، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان.
- (٢٩) ديوان كعب بن زهير، صنعة أبي سعيد السكري، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة: ١٩٥٠.
- (٣٠) جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٣٣.
- (٣١) شرح ديوان الهذليين، صنعة أبي سعيد السكري، تحقيق عبد الستار أحمد فراج.
- (٣٢) ديوان لبيد بن ربيعة، دار صادر، بيروت، د.ت.
- (٣٣) مجمع الأمثال، الميداني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧.
- (٣٤) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، دار صادر، بيروت.
- (٣٥) العقد الفريد، ابن عبد ربّه.
- (٣٦) شرح ديوان جرير، محمد إسماعيل بن الصاوي، مكتبة الصاوي، مصر، ١٣٥٣.
- (٣٧) خزانة الأدب ولب لباب العرب - عبد القادر بن عمر البغدادي - تحقيق عبد السلام هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- (٣٨) شرح ديوان الحماسة للخطيب التبريزي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي.